مجدى الهلالى

كيف ننتفع بالقرآن؟



كيف ننتفع بالقرآن؟

د. مجدى الهلالى

طبعة جديدة

الطبعة الثانية

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع

٢٠٠٣/١٦٥٤٦م

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

١٠ شارع أحمد عمارة بجوار حديقة الفسطاط

ت : ٢٥٣٢٦٦١٠ - ٠١٠٥٢٢٤٢٠٧ - ٠١٠٢٣٢٧٣٠٢

www.iqraakotob.com

Email:iqraakotob@yahoo

كيف ننتفع بالقرآن؟

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد . . .

فلقد اعتاد الكثير منا بعد دخوله المسجد وجلوسه فيه انتظاراً للصلاة أن يتناول مصحفًا من المصاحف ليقرأ فيه حتى يحين وقت إقامة الصلاة، فإن سألته عما استفاده من تلك القراءة، والجديد الذى خرج به ففى الغالب لن تجد منه جوابًا، فهو يقرأ القرآن وعينه على الثواب المترتب على تلاوته بغض النظر عن أى شىء آخر، ويزداد هذا الأمر وضوحًا فى شهر رمضان، فما إن يدخل هذا الشهر المبارك على المسلمين إلا وتزدحم المساجد بالمصلين، وينكب الواحد منا على المصحف ويجتهد فى قراءة القرآن وختمه عدة مرات، بل ويتبارى فى ذلك الأقران، ومما لاشك فيه أن هذه الظاهرة تحمل فى طياتها بعض الجوانب الإيجابية، مثل: اهتمام المسلمين بكتابهم، وحبهم له، وتعلقهم به، ولكن ، ومما يدعو للأسف، أن محور الاهتمام غالبًا ما يدور حول حروف القرآن وألفاظه، دون أن

يصاحب ذلك اهتمام مماثل بما تحمله هذه الألفاظ من معانٍ هادية، تدفع من يعيش فى أجوائها إلى الاستقامة على أمر الله وعلى صراطه المستقيم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وخير دليل على أن ما نفعله مع القران ينقصه الكثير والكثير هو واقعنا الذى نحياه، فالواحد منا يقرأ الآيات والسور، وينتهى من الختمة تلو الختمة، دون أن تجد أثرًا لهذه القراءة فى أفعاله وسلوكه، بل إنك إن سألته عما استوقفه من آيات لم تجد منه جوابًا، فالهمُّ منصرفٌ لتحصيل أكبر قدر من القراءة طمعًا فى الأجر والثواب الذى أخبر به ﷺ بقوله: **«من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»**(١).

المعنى هو المقصود:

وما هذا فقط أراد رسول الله ﷺ، فلو كان أمر القرآن يتعلق بالثواب المترتب على قراءته فقط لكانت هناك أعمال أخرى تعود علينا بثواب أكبر، مثل ما أخبرنا به ﷺ: **«من دخل**

---

(١) حسن، رواه الترمذى عن عبد الله بن مسعود.

السوق فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت ، وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير ، كُتب له ألف ألف حسنة ، ومُحي عنه ألف ألف سيئة ، ورُفع له ألف ألف درجة ، وبُني له بيت في الجنة»[1] .

ولسنا نعني بذلك التقليل من شأن الثواب المترتب على قراءة القرآن، بل نعني إعادة النظر في طريقة تعاملنا معه، فقيمة القرآن وبركته الحقيقية تكمن في معانيه، ولأن اللفظ وسيلة لإدراك المعنى كان التوجيه النبوي بالإكثار من تلاوته، وتحفيز الناس على ذلك من خلال الثواب الكبير المترتب على قراءته، ومثال ذلك : الأب الذي يرصد مكافأة لابنه إن استمر في المذاكرة عدة ساعات، هو بالتأكيد لا يقصد من وراء ذلك مجرد جلوسه على المكتب والنظر في الكتب دون فهم ما تحتويه، بل هدفه تشجيع ابنه على المذاكرة بذهن حاضر ليتحقق له النجاح.

فإذا ما نظرنا إلى الهدف الأسمى من نزول القرآن، وربطنا بينه وبين ما رتب الشارع الحكيم على قراءته من ثواب عظيم،

---

(١) صحيح الجامع الصغير ح (٦٢٣١) .

لوجدنا أن من أهداف هذا الثواب تشجيع المسلمين على دوام الاقتراب منه حتى يهتدوا بهداه، ويستشفوا بشفائه.. أمَا أن نقترب منه وليس لنا هدف إلا ثواب القراءة فقط دون الالتفات إلى المعنى المقصود من الخطاب فإننا – لا شك – سنخسر كثيراً بالاقتصار على ذلك التعامل الشكلى ولن يحقق فينا القرآن – حينئذ – مقصوده.

لا بديل عن التدبر:

إن نصوص القرآن واضحة فى أهمية تدبره عند قراءته أو الاستماع إليه، ليكون التدبر وسيلة للفهم والتأثر ثم العمل. يقول تعالى ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [ص: ٢٩]. وقوله تعالى ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ [محمد: ٢٤].

ولأن فهم مقصود الخطاب لابد أن يلازم قراءة القرآن كان توجيه الرسول ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص بألا يختم القرآن فى أقل من ثلاث معللاً ذلك بقوله ﷺ: « **لا يفقهه من يقرؤه فى أقل من ثلاث** »[1].

---

(١) صحيح الجامع الصغير ح (١١٥٧).

إننا نعمل جاهدين على فهم المقصود من أى كلام نقرؤه أو نسمعه... فلماذا لا نطبق هذه القاعدة على القرآن؟ ... لماذا نتعامل مع القرآن على أنه كلام يصعب فهمه مع أن أغلب آيات القرآن واضحة المعنى؟!!

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية :ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك[1]. ويؤكد على هذا المعنى الأستاذ حسن الهضيبى فيقول: ليست العبرة فى التلاوة بمقدار ما يقرأ المرء، وإنما العبرة بمقدار ما يستفيد، فالقرآن لم ينزل بركة على النبى ﷺ بألفاظه مجردة عن المعانى، بل إن بركة القرآن فى العمل به، واتخاذه منهجًا فى الحياة يضىء سبيل السالكين، فيجب علينا حين نقرأ القرآن أن يكون قصدنا من التلاوة أن نحقق المعنى المراد منها، وذلك بتدبر آياته وفهمها والعمل بها[2].

التدبر وسيلة وليس غاية:

نعم لابد أن يصاحب قراءة القرآن الفهم والتدبر.

---

(١) مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية ص ٧٥ .

(٢) مقالات الإسلاميين فى رمضان لمحمد موسى الشريف ص ٤٢٦ .

قال القرطبى عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]. يقول: ودلت هذه الآية على وجوب التدبر فى القرآن ليُعرف معناه[١].

ومع ذلك فتدبر القرآن وإن كان واجبًا على قارئه أو مستمعه إلا أنه ليس غاية فى حد ذاته، بل هو وسيلة لتفعيل معجزته الكبرى وتحقيقها فى نفس متلقيه.

المعجزة الكبرى:

نعلم جميعًا أن القرآن الذى بين أيدينا هو أكبر وأعظم معجزة جاءت من عند الله عز وجل للبشر .. أكبر من معجزة عيسى – عليه السلام – فى إحيائه للموتى بإذن الله، ومن عصا موسى، وناقة صالح عليهما السلام، وغيرهما من المعجزات، فما هو سر هذه المعجزة والذى جعلها تتفوق على كل ما سبقها من معجزات؟

قد يجيب البعض بأن معجزة القرآن تكمن فى أسلوبه، وبلاغته، وتحدى البشر به، وأنه صالح لكل زمان ومكان و... إلخ

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ٥ /١٨٧.

نعم هذا كله من أوجه إعجاز القرآن، ولكن يبقى سر إعجازه الأعظم فى قدرته على التغيير.. . تغيير أى إنسان، ومن أى حال يكون فيه ليتحول من خلاله إلى إنسان آخر عالمًا بالله عابدًا له فى كل أموره وأحواله، حتى يتمثل فيه قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

كيفية التغيير:

والتغيير الذى يحدثه القرآن يبدأ بدخول نوره إلى القلب، فكلما دخل النور إلى جزء من أجزائه بدَّدَ ما يقابله من ظلمة أحدثتها المعاصى والغفلات واتباع الهوى.

وشيئًا فشيئًا يزداد النور فى القلب، وتدب الحياة فى جنباته، ليبدأ صاحبه حياة جديدة لم يعهدها من قبل.

قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام: ١٢٢]. فالقرآن إذن هو الروح التى تُبث فى القلب فتحييه. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[الشورى: ٥٢].

وعندما تُبث الروح فى القلب، وتمتلئ جنباته بنور الإيمان، فإن هذا من شأنه أن يطرد الهوى وحب الدنيا من القلب مما يكون له أبلغ الأثر على سلوك العبد واهتماماته، وهذا ما أوضحه ﷺ للصحابة عندما سألوه عن معنى انشراح الصدر الذى جاء فى قوله تعالى ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر:٢٢]، قال ﷺ : «**إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح**» قلنا: يا رسول الله وما علامة ذلك؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله**»(١).

من آثاره المعجزة:

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]. إن للقرآن تأثيرًا قويًا يفوق ما يمكن تخيله، ولقد ضرب لنا سبحانه وتعالى مثلاً لذلك فقال عز من قائل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] فالجبال – كما يقول

---

(١) أخرجه الحاكم والبيهقى فى الزهد.

القرطبى - إذا ما خوطبت بهذا القرآن، مع تركيب العقل لها لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة، أى متشققة من خشية الله[1]. وفى هذا المثل دعوة للتفكير فى قوة تأثير القرآن ليكون حجة على الجميع، ويبطل دعوى من ادعى بأنه ليس أهلاً لتدبر القرآن.

القرآن والجن:

ومن آثار المعجزة القرآنية، وقوة تأثيرها ما حدث لنفر من الجن حين استمع للقرآن.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (30) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[الأحقاف: ٢٩- ٣٢].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ٣٠.

نموذج للتغيير القرآنى:

للقرآن تأثير عجيب فى نفس من يُحسن استقباله والتعامل معه على حقيقته ككتاب هداية وشفاء، فمن شأنه أن يُحدث انقلابًا جذريًا شاملاً فى شخصيته، فيعيد صياغتها وتشكيلها من جديد على النحو الذى يحبه الله ويرضاه، فإن كنت فى شك من هذا فتأمل معى ما حدث للصحابة -رضوان الله عليهم- والذين كانوا قبل إسلامهم غاية فى الغرابة والجاهلية، ليدخلوا بهذه الحالة إلى مصنع القرآن ثم يخرجوا منه أُناسًا آخرين تفخر بهم البشرية حتى الآن.

إنه لأمر عجيب يشهد بقدرات هذا الكتاب على إحداث التغيير الجذرى فى النفوس -أى نفوس- وإلا فمن يصدق أن أمة تعيش فى الصحراء، حفاة عراة فقراء، بلا مقومات تذكر، لا توضع فى حسابات القوى الكبرى آنذاك، فيأتى القرآن ليغيرها ويعيد صياغة شخصيتها وكيانها من جديد، ويرفع هامات أبنائها إلى السماء، ويربط قلوبهم بالله ليكون وحده هو الغاية والمقصد، حدث كل هذا فى وقت قصير.. سنوات معدودات كانت كفيلة بإحداث هذا التغيير الجذرى.

فماذا كانت النتيجة؟!

تحقق الوعد الذى وعد الله به عباده إذ ما قاموا بتغيير ما بأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ففى سنوات معدودة خرجت القوة الجديدة من قلب نفس الصحراء لتحطم الإمبراطوريات وتقلب الموازين وتؤول لها القيادة والريادة ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

لماذا غيّر القرآن الصحابة؟!

الذى مكّن القرآن على إحداث هذا التغيير الجذرى فى جيل الصحابة، هو حسن تعاملهم معه بعد أن أدركوا قيمته وفهموا المقصد من نزوله، ولقد كان أستاذهم رسول الله ﷺ قدوتهم فى ذلك، فلقد عايش ﷺ القرآن بكيانه كله وانصبغت حياته به، حتى صار وكأنه قرآنًا يمشى على الأرض، يغضب لغضبه، ويرضى لرضاه.

كان ﷺ يقرأ القرآن قراءة متأنية مترسلة، فيرتل السورة حتى تُصبح أطول من أطول منها، ولقد ظل ﷺ ليلة كاملة يردد فى

صلاته آية واحدة وهى قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨].

بل إنك لتعجب من قوة تأثير القرآن على رسول الله ﷺ عندما يخبرنا بقوله «**شيبتنى هود وأخواتها قبل المشيب**»[١]

أما تأثير القرآن على الصحابة، فخير دليل عليه هو واقعهم الذى تبدل، واهتماماتهم التى تغيرت، فإن أردت مثالاً لكيفية معايشة الصحابة للقرآن وقوة تأثيره عليهم، فانظر إلى أمر عبَّاد بن بشر الذى كان يتبادل حراسة المسلمين مع عمّار بن ياسر فى غزوة ذات الرقاع، فطلب من عمّار، وقد كان مجهداً، أن ينام أول الليل ويقف هو، فلما رأى أن المكان آمن صلى، فجاء أحد المشركين فرماه بسهم فنزعه وأكمل صلاته، ثم رماه بسهم ثان فنزعه وأكمل صلاته، ثم رماه بثالث فنزعه وأنهى التلاوة وأيقظ عماراً وهو ساجد، فلما سأله عمار لِمَ لَمْ يوقظه أول ما رُمى؟ فأجاب: (كنت فى سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفدها فلما تابع علىَّ الرمى ركعت فآذنتك، وأيم الله لولا أن أُضيع ثغرًا أمرنى رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسى قبل أن أقطعها أو أنفدها)[٢]

(١) صحيح الجامع الصغير ح (٣٧٢١).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام.

بركة القرآن:

إذن فقيمة القرآن الحقيقية تكمن في معانيه، وقدرته على إحداث التغيير الجذرى لقارئه، وإعادة صياغة عقله، وبث الروح فى قلبه، وترويض نفسه ليخرج منه عالمًا بالله عز وجل، عابدًا له بإخلاص وعلى بصيرة، وهذا لن يتحقق بمجرد القراءة العابرة باللسان فقط، ولو تم ختمه بهذه الطريقة آلاف المرات.

وهذا ما كان يؤكد عليه الصحابة، رضوان الله عليهم، فقد قيل للسيدة عائشة -رضى الله عنها-: إن أناسًا يقرأ أحدهم القرآن فى ليلة مرتين أو ثلاثًا، فقالت: قرءوا ولم يقرءوا، كان رسول الله ﷺ يقوم ليلة التمام فيقرأ سورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة النساء لا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله تعالى ورغب، ولا يمر بآية فيها تخويف إلا دعا واستعاذ.(١)

وعن أبى جمرة قال: قلت لابن عباس: إنى سريع القراءة وإنى أقرأ القرآن فى ثلاث، فقال: لأن أقرأ البقرة فى ليلة فأدبرها وأرتلها أحب إلى من أن أقرأ كما تقول.(٢)

---

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد (١١٩٦) ص ٤٢١.

(٢) فضائل القرآن لأبى عبيد ص ١٥٧.

ومن وصايا ابن مسعود رضى الله عنه: لا تهذُّوا القرآن هذّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب ولا يكن همَّ أحدكم من السورة آخرها.(١)

ويؤكد على هذا المعنى الآجرى فى كتابه أخلاق حملة القرآن فيقول: والقليل من الدرس للقرآن مع التفكر فيه وتدبره أحب إلىَّ من قراءة الكثير من القرآن بغير تدبر ولا تفكر فيه، وظاهر القرآن يدل على ذلك، والسنة وأقوال أئمة المسلمين. سُئل مجاهد عن رجل قرأ البقرة وآل عمران، ورجل قرأ البقرة، قراءتهما واحدة، وركوعهما وسجودهما، وجلوسهما، أيهما أفضل؟ قال الذى قرأ البقرة، ثم قرأ ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ [الإسراء: ١٠٦](٢).

حالنا مع القرآن:

أتعلم يا أخى أن القرآن الذى بين أيدينا هو القرآن الذى كان مع الصحابة، وهو الذى صنع منهم هذا الجيل الفريد؟!!

فما الذى تغير؟!

---

(١) مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر ص ١٣٢.

(٢) أخلاق حملة القرآن للآجرى ص ٨٢- ٨٣.

لماذا لم يعد القرآن ينتج مثل هذه النماذج؟!!

هل فقد مفعوله؟!

حاشاه أن يكون كذلك، وهو المعجزة الخالدة إلى يوم القيامة.

إذن فالخلل فينا نحن، فمع وجود المصاحف فى كل بيت، وماتبثه الإذاعات ليل نهار من آيات القرآن، ومع وجود عشرات بل مئات الآلاف من الحفاظ على مستوى الأمة وبصورة لم تكن موجودة فى العصر الأول، إلا أن الأمة لم تجن ثماراً حقيقية لهذا الاهتمام بالقرآن.. لماذا؟

لأننا لا نوفر للقرآن الشروط التى يحتاجها لتظهر آثار معجزته ويقوم بمهمة التغيير، فلقد اقتصر اهتمامنا بالقرآن على لفظه، واختُزل مفهوم تعلم القرآن على تعلم حروفه وكيفية النطق بها دون أن يصحب ذلك تعلم معانيه، وأصبح الدافع الرئيسى لتلاوته هو نيل الثواب والأجر دون النظر إلى ما تحمله آياته من معان هادية وشافية مما جعل الواحد منا يسرح فى أودية الدنيا وهو يقرأ القرآن، ويفاجأ بانتهاء السورة ليبدأ فى غيرها، ويبدأ فى السرحان مرة أخرى دون أن يجد حرجًا فى ذلك، بل

إنه فى الغالب ما يكون سعيداً، وفرحًا بما أنجزه من قراءة كمًا لا كيفًا!

نُدير مؤشر المذياع على صوت قارئ القرآن ثم نتركه يرتل الآيات ويخاطب بها الجدران ثم ينصرف كل منا إلى ما يشغله.

من آثار هجر القرآن:

هذا التعامل الشكلى مع القرآن أدى إلى عدم الانتفاع الحقيقى به.

فماذا كانت النتيجة؟!!

توقفت المعجزة القرآنية -أو كادت- فى إحداث التغيير الحقيقى فى النفوس، لتزداد الفجوة بين الواجب والواقع، والقول والفعل.. تغيرت اهتماماتنا، وازداد حبنا للدنيا وتعلقنا بها، فجرت علينا سنة الله عز وجل: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنفال:٥٣]

وانطبق حالنا مع ما أخبر به رسول الله ﷺ عندما قال: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**»

فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن اللهُ من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن**» فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»(١).

ضرورة العودة إلى القرآن:

من هنا يتضح لنا أنه قد آن أوان العودة الحقيقية إلى القرآن فنقبل على مأدبته، ونُعطى له عقولنا وقلوبنا، ونترك له أنفسنا.

آن الأوان لكى نبدأ عملية التغيير الحقيقية فى ذواتنا حتى يتحقق موعود الله لنا كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[الرعد: ١١].

ولنعلم جميعًا أن أى بداية أخرى تتجاوز القرآن لن تأتى بالثمار المطلوبة، ولم لا والقرآن هو الدواء الربانى الذى أنزله الله عز وجل ليشفى به الإنسان من أمراضه، ويعيد به العافية إلى قلبة قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾[يونس: ٥٧].

---

(١) السلسلة الصحيحة ح (٩٥٨).

كيف ننتفع بالقرآن؟

مما لا شك فيه أن من يقبل على القرآن مستشعراً أنه خطاب من الله عز وجل موجه إليه، يحمل فى طياته مفاتيح سعادته فى الدنيا والآخرة، وأنه القادر بإذن الله على تغييره مهما كان حاله.. لا شك أن هذا الشخص لا يحتاج إلى من يدله على وسائل تعينه على الانتفاع بالقرآن، لأنه بهذا الشعور قد أصبح مهيأ للتغيير الذى يقوم به القرآن.

أما وإنه من الصعب علينا فى البداية أن نكون كذلك بسبب ما ورثناه من أشكال التعامل الخاطئ مع القرآن، مما جعل هناك حاجزاً نفسياً بيننا وبينه يمنعنا من الانتفاع الحقيقى به.

أما والأمر كذلك فإن عودتنا إلى القرآن تحتاج إلى وسائل سهلة، وعملية ومحددة تعين صاحبها على إدارة وجهه للقرآن، والإقبال على مأدبته، والدخول إلى دائرة تأثير معجزته بصورة متدرجة .

ومن أهم الوسائل التى تحقق هذا الغرض هى:

١ - الانشغال بالقرآن .

٢- التهيئة الذهنية والقلبية.

٣ – القراءة المتأنية.

٤– التركيز عند القراءة.

٥– التجاوب مع الآيات.

٦ – أن نجعل المعنى هو المقصود.

٧ – ترديد الآية التى تؤثر فى القلب.

أولاً: الانشغال بالقرآن:

بمعنى أن يصبح القرآن هو شغلنا الشاغل ، ومحور اهتمامنا، وأولى أولوياتنا، ولكى يكون القرآن كذلك لابد من المداومة اليومية على تلاوته مهما تكن الظروف، وأن نعمل على تفريغ أكبر وقت له، فالتغيير القرآنى تغيير بطيء، هادئ، متدرج، ولكى يؤتى ثماره لابد من استمرارية التعامل معه، وألا نسمح بمرور يوم دون أن يكون هناك لقاء به.

ولنعلم جميعًا أنه على قدر ما سنعطى القرآن سيعطينا، فمن استطاع أن يجعل له فى يومه عدة لقاءات معه فقد حاز قصب السبق.

ثانياً: التهيئة الذهنية والقلبية:

لكي يقوم القرآن بعمله في التغيير لابد من تهيئة الظروف المناسبة لاستقباله، ومن ذلك وجود مكان هادئ بعيد عن الضوضاء يتم فيه لقاؤنا به، فالمكان الهادئ يُعين على التركيز وحسن الفهم وسرعة التجاوب مع القراءة، ويسمح لنا كذلك بالتعبير عن مشاعرنا إذا ما استثيرت بالبكاء والدعاء.

ومع وجود المكان الهادئ علينا أن يكون لقاؤنا بالقرآن في وقت النشاط والتركيز لا في وقت التعب والرغبة في النوم، ولا ننس الوضوء والسواك.

هذا بالنسبة للتهيئة الذهنية، أما التهيئة القلبية فالمقصد منها تهيئة المشاعر لاستقبال القرآن ومن ثمَّ سرعة التأثر به، وهذا يستدعي منا أن نعمل على استجماع مشاعرنا قبل القراءة، ووسائل ذلك كثيرة، منها: الدعاء، وتذكر الموت، والاستماع إلى المواعظ، فإن لم نقدر على ذلك، فليكن التباكي عند القراءة وسيلتنا الميسرة لتلك التهيئة.

ثالثا: القراءة المتأنية:

علينا ونحن نقرأ القرآن أن تكون قراءتنا متأنية، هادئة، مترسلة، وهذا يستدعى منا سلامة النطق وحُسن الترتيل كما قال تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل: ٤].

وعلى الواحد منا ألا يكن همّه عند القراءة نهاية السورة، ولا ينبغى أن تدفعنا الرغبة فى ختم القرآن إلى سرعة القراءة، فلقد ختمنا القرآن قبل ذلك مرات ومرات، فأين ثمرة تلك الختمات، وما الذى تغير فينا؟!

رابعًا: التركيز مع القراءة:

نريد أن نقرأ القرآن كما نقرأ أى كتاب، فعندما نشرع فى قراءة كتاب، أو مجلة، أو جريدة، فإننا نعقل ما نقرؤه، وإذا ما سرحنا فى موضع من المواضع عُدنا بأعيننا إلى الوراء، وأعدنا قراءة ما فات على عقولنا، وما دفعنا إلى ذلك إلا لنفهم المراد من الكلام.

وهذا ما نريده مع القرآن: أن نقرأه بحضور ذهن، فإذا ما سرحنا فى وقت من الأوقات، علينا، أن نعيد الآيات التى شردت الأذهان عنها.

نعم فى البداية سنجد صعوبة فى تطبيق هذه الوسيلة بسبب تعودنا على التعامل مع القرآن كألفاظ مجردة من معانيها، ولكن بالمداومة والمثابرة سنعتاد بمشيئة الله القراءة بتركيز وبدون سرحان.

خامساً: التجاوب مع القراءة:

القرآن خطاب مباشر من الله عز وجل لجميع البشر؛ لى، ولك، ولغيرنا... هذا الخطاب يشمل ضمن ما يشمل: أسئلة وإجابات، ووعد وعيد، وأوامر ونواه.

فعلينا أن نتجاوب مع الخطاب القرآنى بالرد على أسئلته، وتنفيذ أوامره بالتسبيح أو الحمد أو الاستغفار، والسجود عند مواضع السجود... والتأمين على الدعاء، والاستعاذة من النار، وسؤال الجنة، ولقد كان هذا من هدى رسول الله ﷺ، وصحابته الكرام... ولعل القيام بهذه الوسيلة يساعدنا على زيادة التركيز عند القراءة، وعدم السرحان.

سادساً: أن نجعل المعنى هو المقصود:

البعض منا عندما يشرع فى تدبر القرآن، تجده يقف متمعناً عند كل لفظ فيه مما يجعل التدبر عملية شاقة عليه، وما يلبث

أن يملّ فيعود أدراجه إلى الطريقة القديمة فى القراءة دون فهم ولا تدبر. **فكيف لنا إذن أن نقرأ القرآن بتدبر وسلاسة فى نفس الوقت؟!**

الطريقة السهلة لتحقيق هذين الأمرين معًا هو أن نأخذ المعنى الإجمالى للآية، وعندما نجد بعض الألفاظ التى لا نعرف معناها، فعلينا أن نتعرف على المعنى من السياق، كمن يقرأ مقالاً ولا يعرف معانى بعض الكلمات، فإنه يفهم المعنى الإجمالى من السياق، وهذا ما أرشدنا إليه رسول الله ﷺ حين قال: «**إن القرآن لم ينزل يُكّذب بعضه بعضًا، بل يصدق بعضه بعضًا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم فردوه إلى عالمه**»(١). وبهذه الطريقة تصبح قراءة القرآن بتدبر سهلة وميسرة للجميع.

وليس معنى هذا عدم النظر فى كتب التفسير ومعانى الكلمات، فمما لا شك فيه أن للتفسير دور كبير فى حسن الفهم، وله أيضًا دور أساسى فى معرفة الأحكام الشرعية، والتى لا ينبغى علينا أن نستنبطها بمفردنا من القرآن، فتاريخ الأمة الإسلامية يشهد بانحراف الكثير ممن استنبط بمفرده الأحكام

(١) حسن رواه الإمام أحمد فى مسنده وابن ماجة فى سننه.

الشرعية من القرآن، دون أن يكون مؤهلاً لذلك مثل الخوارج وغيرهم.

ومع أهمية دور التفسير إلا أنه ينبغى أن يكون له وقته الخاص به، والغير مرتبط بوقت القراءة، فنحن لا نريد أن نخرج من لقائنا بالقرآن بزيادة الفهم فقط، ولكن نريد القلب الحى كذلك، وهذا يحتاج إلى اللقاء المباشر مع القرآن، والسماح بقوة تأثيره أن تنساب داخلنا وتتصاعد من خلال الاستمرار فى القراءة، والاسترسال مع الآيات والتجاوب معها.

سابعًا: ترديد الآية التى تؤثر فى القلب:

وهذه من أهم الوسائل المعينة على سرعة الانتفاع بالقرآن، فالوسائل السابقة مع أهميتها القصوى، إلا أنها فى النهاية تخاطب العقل الذى يعد محلاً للعلم والمعرفة، أما الإيمان فمحله القلب. والقلب هو مجموع العواطف والمشاعر داخل الإنسان ، وعلى قدر الإيمان فيه تكون الأعمال الصالحة التى تقوم بها الجوارح.

معنى ذلك أن الإيمان عاطفة ومشاعر، وأنَّ لحظات التجاوب والانفعال التى نشعر بها فى دعائنا أو صلاتنا أو قراءتنا للقرآن تؤدى إلى زيادة الإيمان فى قلوبنا.

القرآن وزيادة الايمان

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

فالقرآن من أهم وسائل زيادة الإيمان وذلك من خلال مواعظه البليغة التى تستثير المشاعر وتؤججها، فيحدث بذلك التجاوب بين الفكر والعاطفة.

نعم.. قد تكون لحظات التجاوب والانفعال قليلة فى البداية، ولكن الاستمرارعلى قراءة القرآن من خلال استصحاب الوسائل السابقة ستأتى - بعون الله - تلك اللحظات.

فماذا نفعل وقت حدوثها؟

علينا أن نستثمر الفرصة التى جاءتنا، ونعمل على دخول أكبر قدر من نور الإيمان إلى القلب فى هذه اللحظات، وذلك من خلال ترديد الآية التى أثّرت فينا، وعلينا ألا نملّ من ذلك طالما وُجد التجاوب، وهذا ما كان يفعله الصحابة والسلف رضوان الله عليهم.

عن عباد بن حمزة قال: دخلت على أسماء -رضى الله عنها - وهى تقرأ ﴿فمنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ووقَانَا عذاب السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧] فوقفت عندها فجعلت تعيدها وتدعو، فطال ذلك فذهبت إلى السوق، فقضيت حاجتى ثم رجعت وهى تعيدها وتدعو(١).

وبترديد الآية التى تؤثر فى القلب تتولد فى داخل العبد طاقة، عليه أن يُحسن تصريفها بالبكاء والدعاء كما قال تعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ أُوتُوا الْعلْمَ من قَبْله إذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ للأَذْقَان سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ للأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

فإذا ما انقطع التجاوب أكملنا تلاوتنا بنفس الطريقة منتظرين تجاوبًا آخر مع آيات جديدة، وبمرور الوقت ستزداد مساحة التأثر والتفاعل فى لقائنا اليومى بالقرآن، لتزداد تبعًا لذلك مساحة النور والإيمان فى القلب وتتبدد ظلمات الهوى، وشيئًا فشيئًا تسرى روح القرآن فيه ليصبح قلبًا حيًا رقيقًا يقظًا، يدفع صاحبه دومًا لفعل كل ما يرضى مولاه وترك ما يبغضه... وبهذا يقوم القرآن بأهم دور له ألا وهو قيادة الحياة إلى الله عز وجل.

(١) مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر ص ١٤٩.

وبعد

فهذه سبعة وسائل لا نجد فيها ما يصعب علينا الأخذ به، ولا يبقى بعد ذلك إلا الرغبة الصادقة فى التغيير.. هذه الرغبة التى لا نشك أنها متوفرة لدى الجميع - بفضل الله عز وجل - علينا أن نُحسن التعبير عنها بدعاء الله عز وجل وسؤاله تيسير طريق العودة إلى القرآن والانتفاع به. قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

ولنضع نُصب أعيننا هدفًا محددًا نسعى للوصول إليه ألا وهو القلب الحى والذى أخبر عن أمارته رسول الله ﷺ بقوله: **«الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله»**(١).

وعلى قدر الهمة يكون العزم والانطلاق... جاء فى الأثر: «لو تعلقت همة أحدكم فى الثريا لبلغها».

وأخيراً. فيا أخى الحبيب ..

إن كنت تريد السعادة لك ولأهلك فعليك بالعودة إلى

---

(١) سبق تخريجه.

القرآن، وإن كنت تريد العزة والنصر لأمتك فتمسك بالقرآن ففيه كل ما تحتاجه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

ولا تنس وأنت تعيش فى أجواء القرآن، وتغترف من معينه، وتتذوق من خلاله حلاوة الإيمان أن تدعو لى ولإخوانك المسلمين فى كل مكان بالمغفرة والرحمة وحسن الخاتمة.

وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

الفهرس